سنان شيخ الجبل

صفحة من تاريخ الأدب السياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) كانت الأمم الإسلامية تجتاز مرحلة عصيبة من تاريخها ، ففي هذه الحقبة استقر الفرنج الصليبيون في فلسطين وثغور الشام ، وقامت مملكة نصرانية لاتينية في بيت المقدس في قلب ديار الإسلام ، وانقسمت الكتلة الاسلامية في المشرق إلى دويلات صغيرة متنازعة ؛ ونشب بين الإسلام والنصرانية في تلك الهاد صراع مستمر طويل الأمد ؛ وكانت المعارك سجالاً بين هذه القوى الخصيمة المتفرقة ؛ ولكن الفرنج الصليبيين احتفظوا لأنفسهم مدى حين بنوع من التفوق ؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية كانت تجتاز مرحلة انحلالها ، وكانت الإمارات الاسلامية في شمال الشام مشغولة بمعاركها المحلية ؛ وكان الفرنج ينتهزون الفرص السانحة فيعملون على إذكاء الخلاف ويظاهرون أميراً على أمير ، ويحققون لأنفسهم ما استطاعوا من الأسلاب والمغانم

في تلك الفترة العصيبة المضطربة كانت الشام فوق كونها مسرحاً للحروب الأهلية والمعارك الصليبية المتواصلة مسرحاً لنشاط بعض الجماعات السرية التي الفت فرصتها في تلك الفوضى السياسية والاجتماعية الشاملة ، وكانت في مقدمة هذه الجماعات طائفة فرسان المعبد أو الدواية ، وطائفة الاسبتارية [1] وطائفة الإسماعيلية الباطنية ؛ وكانت الأولى والثانية طائفتين نصرانيتين ظهرتا بعد قيام المملكة الصليبية ، وأنشئتا في البداية لبواعث وظروف دينية ، ثم انقلبت كلتاهما بعد ذلك إلى جمعية سرية فدائية وكانت الثالثة تحسب ضمن الطوائف الاسلامية المذهبة ، وقد أنشئت في أواخر القرن الخامس على يد داعية اسماعيلي بارع هو الحسن بن الصباح الحميري ، ونظمت أولاً في شمال فارس ، حيث استحالت غير بعيد إلى عصابة إرهابية قوية تعتصم ببعض القلاع المنيعة ، وتعتمد في تنفيذ مآربها على الارهاب السياسي والاغتيال المنظم ؛ وفي أوائل القرن السادس لما اشتدت مطاردة الأمراء السلاجقة للاسماعيلية في فارس ، فر بعض دعاتهم إلى الشام ، ولبثوا حيث يبثون هناك دعوتهم سراً ؛ وكان الأمراء المحليون مثل صاحب حلب وصاحب دمشق يلجأون أحياناً إلى هؤلاء الدعاة الخطرين في تنفيذ مشاريعهم واغتيال خصومهم ، وبذلك أضحوا قوة سياسية يحسب حسابها ، ولما كثر جمعهم وقوى أمرهم طلب زعيمهم بالشام بهرام الاستراباذي من صاحب دمشق حصناً يأوي إليه مع أنصاره ، فأقطعه قلعة بانياس (سنة ٥٢٠ هـ) ، فتحصنوا بها ، ولم يأت منتصف القرن السادس حتى كانت لهم في الشام سلسلة من القلاع المنيعة بين طرابلس وحماة ، يتخذونها قواعد للإغارة والدفاع ، وحتى غدوا عاملا قوياً في حوادث هذا العصر وتطوراته

كان الدواية والأسبتارية يعملون في البداية لخدمة القضية الصليبية ونصرة الأمراء الصليبيين ، وكانت نظمهم ووسائلهم تشبه من بعض الوجوه نظم الاسماعيلية ووسائلهم من حيث اعتمادهم على التآمر والدس والاغتيال المنظم ؛ ثم استحالوا غير بعيد إلى جماعات سرية نفعية ترتكب جرائمها ، وتبحث عن مغانمها حيثما استطاعت دون النظر إلى اعتبار الدين أو القومية . أما الاسماعيلية فإنهم بالرغم من ثوب الرياء المذهبي الذي أسبغوه على عقائدهم الدينية والسياسية ، ظهروا على مسرح الحوادث طائفة مغامرة لا عهد لها ولا ذمام تبحث وراء طالعها في هذا المعسكر أو ذاك ، وتنقلب في خدمة المسلمين والفرنج طبقاً للحوادث والظروف ، وتدس ما استطاعت بين أمراء الفرنج وأمراء المسلمين لتجني ثمار دسها ؛ وكان يحسب حسابها أعظم وأقوى الأمراء من الفريقين ؛ وقد ارتكب دعاتها عدة جرائم سياسية رنانة ذهب ضحيتها جماعة من أكابر الأمراء والقادة ، وكان لها أثر كبير في تطور الحوادث والمعارك في بسائط الشام

* * *

كان الإسماعيلية يمثلون في الشام نفس الدور الذي كان يمثله زملاؤهم في فارس ، وكان أولئك الدعاة والمتآمرون الأذكياء

(١) الأولى هي بالفرنسية Les Templiers والثانية Les Hospitaliers

يبثون أينما حلوا بذور التوجس والروع ، وكانوا يقتنون بقلاعهم الشاهقة يتحينون فرص العمل الخفي النادر ؛ وكان الفدائية منهم — وهم الذين يناط إليهم تنفيذ الجرائم السياسية — رجالاً من أخطر طراز يمتازون بالإقدام المدهش ، لا يتهيبون الموت ، ولا يردهم عن غايتهم شيء ؛ ولم يتخذ زعماء الإسماعيلية قط لقب السلطنة أو الإمارة ، ولكنهم كانوا يقنعون بلقب المقدم أو الشيخ أو شيخ الجبل ؛ وكان هذا اللقب الأخير يطلق بنوع خاص على زعيم الإسماعيلية في الشام ، وإن كان الرحالة ماركوبولو الذي عرف الإسماعيلية ودعاتهم في فارس يحدثنا بأن كبيرهم ينعت أيضاً بشيخ الجبل ؛ وعلى أي حال فإن كلمة الشيخ تعني هنا السيد أو الرئيس خلافاً لما ذهب إليه الرواة الفرنج المعاصرون من اعتبارهم الشيخ هنا بمعنى « الرجل العجوز » ، وهو خطأ شائع في معظم التواريخ الفرنجية

وكان مقدم الاسماعيلية أو شيخ الجبل في الشام في أواسط القرن السادس زعيماً وافر الجرأة والذكاء هو راشد الدين سنان ابن سلمان ؛ ولا تعرف الرواية سناناً إلا بأنه مقدم الاسماعيلية ، ولا تحدثنا عن أصله ونشأته ، ولكن لا ريب في أنه أحد أولئك الدعاة المغامرين الذين يكتنف الغموض حياتهم الأولى ، ثم يظهرون فجأة على مسرح الحوادث . وكان مقره في حصن مصياب (أو مصياف) على مقربة من طرابلس وهو يومئذ أمنع حصون الاسماعيلية بالشام ؛ وكان هذا الداعية الاسماعيلي يخفي مشاربه ومطامعه الدنيوية تحت ستار من الورع المؤثر ، ويبدو دائماً في صفة الإمام الديني ، ويرتدي الثياب الخشنة ، ويعظ أنصاره طول اليوم من فوق رابية ، ويحيط كل حياته بحجاب من الغموض حتى قيل إنه لم يرقط نائماً أو آكلاً أو شارباً ؛ على أنه كان بالرغم من هذه المظاهر الورعة الخلابة مغامراً لا ذمام له ، يتربص فرص الوثوب والفتنة ، ويتقلب في خدمة الصديق والعدو معاً ؛ ولم ير سنان بأساً من محالفة الفرنج الصليبيين ، فتراه يتصل بأموري ملك بيت المقدس ، ويرسل إليه الداعي بهاء الدولة سفيراً ليسعى لديه إلى إعفاء الاسماعيلية من الجزية التي تعهدوا بدفعها ؛ ونجح السفير في مهمته ، ولكن قتله الدواية (فرسان المعبد) حين عودته ؛ وخشي ملك الفرنج عواقب هذه الجريمة ، فاعتقل القتلة وقضى عليهم بالسجن ، وذلك استبقاء لمودة الاسماعيلية واتقاء بطشهم

ولعب سنان في حوادث هذه الفترة دوراً عظيماً ؛ ومع أنه لم يكن قوياً بجسمه وقواه المادية ، فقد كان قوياً بدسائسه ووسائله الإرهابية الخطرة ؛ وكان أمراء الشام المسلمون يرهبون جانبه ويلتمسون محالفته ؛ ولما تألق نجم صلاح الدين وقبض على زمام الأمور في مصر اتجهت أبصار خصومه إلى الاسماعيلية أو الحشيشية كما تسميهم الروايات المعاصرة ، لما عرف من أنهم كانوا يأكلون أوراق الحشيش ؛ ففي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) دبر أنصار الدولة الفاطمية الذاهبة مؤامرة لقلب حكومة القاهرة ، واغتيال صلاح الدين ، وفكروا في الاستعانة بالفرنج كما فكروا في الاستعانة بسنان شيخ الجبل ، فبعثوا إليه ليدبر كميناً لاغتيال السلطان (صلاح الدين) على يد بعض الفدائية سواء في الشام أو في مصر ووعدوه بالمنح والعطايا الجزيلة ؛ ولكن سرعان ما افتضحت المؤامرة وقبض على مدبريها وأعدموا ، ولم تسنح الفرصة في هذه المرة ليعمل شيخ الجبل ؛ ولكن الفرصة سنحت غير بعيد ؛ ففي أوائل سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) كان صلاح الدين على رأس جيشه في شمال الشام على مقربة من حلب ، وكان من برنامجه سحق الإمارات المستقلة التي تمزق الشام وتجعل منه فريسة هينة للفرنج الصليبيين ؛ وكان أتابك الموصل عز الدين مسعود يخشى على ملكه إذا استولى صلاح الدين على الشام ، فاتفق مع سنان شيخ الجبل على اغتيال صلاح الدين أثناء وجوده بالشام ؛ وكان الاسماعيلية أو الحشيشية يرون في تقدم صلاح الدين خطراً داهماً على سلطانهم فكانوا يرحبون بكل مؤامرة أو مشروع لسحقه ؛ ففي الحال بعث سنان بعض الدعاة الفدائية إلى معسكر السلطان (صلاح الدين) فاندسوا إليه متنكرين . وفي ذات مساء استطاع أحدهم أن يصل إليه وهو في خيمة بعض الأمراء يفحص خطط الدفاع ، ثم انقض عليه وطعنه في رأسه بخنجره ، وكان صلاح الدين يعرف غدر الباطنية ويحترز منهم بارتداء الدروع المصفحة ، فحالت قلنسوته الصلبية دون إصابته ؛ فحول القاتل عندئذ خنجره إلى خده فجرحه جرحاً شديداً ، ثم دفعه إلى الأرض وحاول أن يجهز عليه ؛ وذهلت بطانة السلطان لهذه المفاجأة الغادرة مدى لحظة ، ولكنهم بادروا إلى القاتل ، وطعنه

أحد الأمراء بسيفه فأرداه ؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين في زي الجند ، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان ، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه ، واشتد الاضطراب والهرج ، وقتل في هذه الواقعة عدة من الدعاة الاسماعيلية ؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة ، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الاسماعيلية ومؤامراتهم ، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم ، فسار إليهم في العام التالي (سنة ٥٧٢ هـ) ، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم ، وفيها مركز زعامتهم ؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان ، ورجاه أن يشفع لديه فيهم ، وتعهد له بالتزام الحيدة والولاء نحو السلطان ، وهدده في نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة ، فخشي الأمير من وعيدهم ، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم ، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود ؛ ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان

ولبث الاسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر ، يتمنعون بقلاعهم في الشام ، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حيثما آنسوا النمو ، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي ؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس ، سارت حملة مصرية إلى الساحل في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وحاصرت قلاع الاسماعيلية ، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق ؛ وبذلك انهار نفوذهم في الشام كما انهار في فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة

محمد عبد الله عنان

في ليلة رأس العام

أنا .. بين الطبيعة والله !

للأستاذ علي الطنطاوي

انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطن عشر طنات ، وخلت ردهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود ، فلم أكن ألمح في خلاله إلا رنين طنات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترن هذه الأصداء في أذني ، فإذا أنا أراها بعيني تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تنحدر إلى أغواره العميقة ، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (في كلية بيروت الشرعية) ويتمدد في أبهائها وغرفها وممراتها ...

فجلست أصغي إلى أناشيد الصمت التي كانت تسمع من حولي باستمرار فأجدها تملأ قلبي مرارة وأسى ...

ثم رفعت رأسي فجاءة إلى التقويم فنظرت فيه وجمد بصري عليه ... أمن الممكن هذا ؟ أيحدث هذا كله في هدوء ... يموت في هذه الليلة عام ويولد عام ، يمضي الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً ، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا ، وقسماً من حياتنا ، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام ؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام ؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعودت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرم عام ، أصفي حالي مع الحياة ، أنظر ماذا أخذت ، وماذا أعطيت ، وأراقب هذه القافلة من السنين التي بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان ، لست أدري متى بدأ الزمان ، والتي تنتهي حيث لايدري أحد

تعودت أن أعطي نفسي من فكري ساعة في العام ، أفكر فيها في نفسي وفي الوجود ...

***

نظرت فلم أجد حولي إلا كتاب التفسير أحضر منه درسي